
10
قصص
المبشرون
بالجنة
رجل زاهد من
أحباب الله
سلوى العنانى
دار اللطائف

رجل زاهد من أحباب الله

(سعيدُ بنُ زيدٍ)

هذه هى ساحةُ الكعبةِ المشرفةِ تستعدُّ لاستقبالِ الحجيج هذا العامِ ، كما تستعد لهم فى كل عامٍ ، وها هى ذى الأصنامُ قد ازدانت وأضاءت من حولها الشموعُ ..

وها هم أولاء تجارُ مكة قد ضاعفوا من كميات بضاعتهم يرتبونها ، ويحسنون عرضها لتستوقفَ الحجيج ويقبلوا عليها .. يشترون بعضَها لأنفسهم ولذويهم .. لكن أغلبَ ما كانوا يشترون كانت قرابين يتقربون بها لآلهتهم الحجريةِ .. نعم كان هؤلاءِ يعبدون أصنامًا من الحجارةِ لا تنفع ولا تضرُّ .. يلقون عليها الثيابَ الجديدةَ .. وينحرون تحت قدميها القرابين ، ثم يتبركون بدمائها ..

كانوا يسجدون لها ، ويبكون بين يديها ، ويسألونها

العونَ والمَدَدَ والنجاحَ والرزقَ الواسعَ ..

وسط هذا الصخبِ والضجيج كان هناك عددٌ قليلٌ من الناسِ يتأملُ ما يحدثُ ، ويتعجبُ من هذه العقولِ المتناقضةِ والنفوسِ الحمقاءِ ..

وكانت عيونُ هؤلاءِ تتجهُ إلى عددٍ قليلٍ من الرجالِ الذين يتحدثون حديثا آخر .. وينهجون منهجًا مختلفا ، ويؤمنون بأشياءَ أخرى .. هؤلاء هم الأحناف ..

والأحناف هم الذين يعبدون الله على دين أبينا إبراهيم عليهم السلامُ ..

فمن هم هؤلاء الأحناف الذين كانوا يعيشون فى مكةَ فى هذا الزمانِ ؟

إنهم ثلاثةُ رضى الله عنهم ..

(قسُّ بن ساعدةَ الأيادى) .

و (ورقةُ بنُ نوفل) .

و (زيد بن عمرو بن نفيل) ..

كان هؤلاء يترنمون بكلمات التوحيد .. ويبشّرون بقرب سطوعِ شمسِ الإيمان الغائبِ فى هذه الديار وبقرب قدومِ النبىِّ المنتظرِ .. ويجاهرون بتركهم عبادةَ قومِهم ، ويتهمونهم دائما بالحمقِ والغباءِ .. ورغم وحدة هدفِهم فإن سياستهم كانت مختلفةً ..

كان (ورقةُ بنُ نوفلٍ) عاكفًا على قراءةِ الأناجيلِ يدرسها ويتلوها بحثا عن حقيقةِ ما يُؤمن به .. وهو دينُ إبراهيم ..

وكان (قسُّ بنُ ساعدة) هائمًا يبحث عن الحقيقةِ دون أن يعرفَ الطريقَ إليها .. ومات قبلَ أن يعرفها ..

أما (زيد بن عمرو بن نفيل) فقد أعلنها أكثر صراحة .. "أعبد رب إبراهيم" ..

كان يجلس مسندًا ظهره إلى الكعبةِ مناديًا الناسَ : "يا

معشرَ قريشٍ ، والذى نفسى بيده ما أصبح منكم أحدٌ على دين إبراهيمَ غيرى ..." .

إنى اتبعت ملةَ إبراهيم وإسماعيلَ مِنْ بعده وإنى لأنتظر نبيا من ولد إسماعيل ـ ما أرانى أُدركه ..

ثم ينادى عامر بن ربيعة ..

ـ يا عامر بن ربيعة ..

"إن طالت بك الحياةُ فأقرئه منى السلامَ" ..

إذن فقد كان (زيدُ بن عمرو بن نفيل) يدرك على وجه اليقين قربَ ظهورِ النبى .. حتى أوصى أن يبلغه صديقُه (عامر) سلامَه إليه ..

ولكن .. هل كان أمر (زيد) يقتصر على جلوسه إلى جوار الكعبة معلنا اتباعه ملة إبراهيم حنيفا .. ومبشرًا بنبى من نسلِ إسماعيل ؟؟ ..

لا .. لم يكن هذا فقط هو فعل (زيد) إنما كان يطوف بالكعبةِ المشرفةِ .. ولم يكن طوافه مثل طواف غيره من الجهلاء الذين كانوا يتجردون من ثيابهم ويصفقون ويصفرون وهم يناجون أصنامَهم .. بل كان يطوف مسبحًا ملبيًا ..

ـ لبيك حقا حقا .

ـ تعبدًا ورقا .

ـ عذت بما علاذ به إبراهيم .

وأسلمت وجهى لمن أسلمت

له الأرض تحمل صخرًا ثقالا

دحاها ، فلما رآها استوت

على الماء أرسى عليها الجبالا

وأسلمت وجهى لمن أسلمت

له المُزن تحمل عذبا زُلالا

ويحلُّ التعب بالشيخ المهيب الأشيب الشعر واللحية، فيجلس مرةً أخرى مسندًا ظهره لجدار الكعبةِ متطلعا إلى السماءِ وقد انهمرتْ دموعُه وهو يناجى ربَّه ..

ـ اللهم لو أنى أعلم أىّ الوجوه أحبّ إليك لعبدتك به، ولكنى لا أعلمه ..

ومما يروى عن (زيد) أنه كان يحول دون وأد البنات .. وإذا رأى من يريد أن يقتل ابنته ..قال له :

ـ لا تقتلها وأنا أكفيك مؤنتها .. أو يأخذها ويرعاها حتى تكبر ..

ويقول لأبيها : "إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مؤنتها" ..

وتمضى السنوات بزيد بن عمرو بنِ نفيلٍ .. هائما مع أشواقه المؤمنةِ .. متنقلا ما بين الكعبةِ وخلاءِ الصحراءِ يبحث عن ضالتِهِ المفقودةِ إلى أن يدركَه الموتُ فى العامِ

الذى أعيد فيه بناءُ الكعبةِ ..

ويترك (زيد) ذرية صالحة مِنْ بعده ..

ابنه (سعيد) .. الذى ورث عن أبيه العزوف عن عبادة الأصنامِ ، والابتعاد عن العبثِ واللهوِ .. والشعور بافتقاد خيرٍ قادمٍ ..

وتمضى الأيامُ (بسعيد) .. فيتزوج بنت عمه (فاطمة بنت الخطاب) ، كما تتزوج شقيقته ابن عمها (عمر بن الخطاب) شقيق (فاطمة) ..

وما إن يسمع (سعيد) أخبار (محمد) ودعوته إلى عبادة الله الواحدِ الأحدِ وهجر عبادة الأصنامِ حتى تدفعه روحُه المرهفةُ وإحساسُه القويمُ إلى الذهابِ ومعه زوجته إلى (محمد) ومبايعته على أنه "لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله" ..

وكان على (سعيد) وزوجته أن يختبئا فى منزلهما يرتلان

القرآن ويتعبدان لله بعيدا عن عيون الكفار والحاقدين ..

وكان (عمر بن الخطاب) صهر (سعيد) وابن عمه من أشد الغلاة فى اضطهاد المسلمين وتعذيبهم والبطش بهم ..

وكان (عمر) يومها فى ربيع شبابهِ فتى قويا حاد الطبع ، سريع الغضب ، محبا للهو والخمر .. فلما علم بهجرة بعض المسلمين إلى الحبشةِ حمل سلاحَه ، واتجه إلى حيث كان محمدٌ يجتمع مع صفوة من أتباعه المسلمين مصممًا على قتله ..

وفى طريقه إلى محمد وصحبه لقى (ابن الخطاب) رجلا يدعى "نعيم بن عبد الله" فسأله عن وجهته .. فلما أخبره عمر سخر منه (نعيم) قائلا :

- أفلا ترجع إلى أهل بيتك وتُقيم أمرهم ؟!

فاشتعل رأسُ عمر بن الخطاب غضبا ورجع إلى حيث

شقيقته (فاطمة) وزوجها (سعيد بـن زيـد) ومـا إن وصـل دارَهم حتى سمع شيئا لم يتبينـه .. لكنـه أحـس أنـه كـلام لم يسمعْه من قبلُ ..

ودق (عمر) البابَ صائحًا .

فارتجف (سعيدٌ) وزوجته ودسا الرقعةَ التـى كـان يقـرآن منها .. ودخل عمر هائجا يسألهما عما كان يقرآن ويسـألهما عن حقيقة ما سمع ..

فأنكرا إسلامهما خوفًا من بطش (عمر) ..

لكن (عمر) لم ينتظـر حـوارًا أو إقناعـا .. لكنـه أمسـك (بسعيد) فطرحـه أرضـا وهـو يوسـعه ضربـا .. واندفعـت (فاطمة) تبعد أخاها عن زوجها .. فما كان مـن (عمـر) إلا أن صفعها صفعة أدمتها ..

هنا استجمعت (فاطمةُ) قوَّتـها وإيمانـها وصرخـت فـى وجه أخيها معترفة بإسلامها وإسلام زوجها ..

وهدأ (عمر) بعض الشيء وطلب الصحيفة يقرأ به ..
وما إن قرأ حتى رق قلبه له ..

واتجه لفوره حيث كان رسول الله وأعلن إسلامَه بين يديه ..

هذا هو (سعيدُ بنُ زيد بن نفيل) الذى أسلم (عمر بنُ الخطاب) على يديه لَمّا رأى منه قوة وصمودًا وتمسكًا بدينهِ .. هذه القوة التى جعلته لا يهاب (عمرَ بنَ الخطاب) وهو الذى يعرف .. من هو (عمر) ؟!

وكان (سعيد بن زيد) من أوائل من أسلموا .. ويقول عنه معاصروه : إنه كان بالحق قوالا ولماله باذلا ولهواه قامعًا وقتالاً .. ولم يكن ممن يخاف فى الله لومة لائم ، وكان مجابَ الدعوة ..

و(لسعيد بن زيد) مكانٌ بارزٌ فى أيام الإسلامِ وغزواته ، وكان مكانُه دائما أمامَ النبى .. يدافع عنه ويدرأ عنه كيد

أعدائه، ويفتديه بروحه ..

أما فى أيام السلم .. فكان مكانُه خلفَ النبى يستوعب قوله وفعله، لهذا أحبه النبىُّ عليه السلامُ وخصه بمجموعةٍ من المهامِّ الجليلةِ ..

وكان يقول عنه : "سعيد بن زيد من أحباء الله" ..

عندها بدأ النبى عليه السلامُ التخطيطَ لغزوةِ بدر أرسل (سعيد بن زيد بن عمرو) ومعه (طلحة بنُ عبيدِ الله) .. لينظر فى أمر قافلة قريشٍ القادمة من الشامِ وما إن بصرا بها حتى عادا سريعا إلى المدينةِ .. لكن النبى عليه السلام كان قد خرج لملاقاة قريش فى (بدر) بعد أن وصلته أنباء أخرى .. وحزن (طلحةُ) و (سعيدُ) لأنهما تخلفا عن الغزو فى سبيل الله .. فطمأنهما رسولُ الله إلى أن ما فعلاه كان جزءًا من المعركةِ وأنهما لم يتخلفا عن تنفيذِ أمره ..

وأعطاهما من غنائم بدر مثل ما أعطى غيرَهما ممن

تصدى للقتال ..

ومضت رحلةُ (سعيد بن زيدٍ) إلى جوارِ رسولِ الله لكنه كان يتخفى دائما عن الأضواء .. وكان دائما يحب أن يعمل فى صمت وهدوء ، فلا يشعر بوجوده أحدٌ ..

إلا أن الرسولَ عرف قدرَه وبشَّره بالجنةِ ضمن من بَشَّرَ من أصحابِهِ ..

لم يفكر (سعيدٌ) يوما فى ولايةٍ ولا رئاسةٍ .. ولم يكن له هم إلا ميادين القتالِ ..

وعندما عَرض عليه أبو (عبيدة بن الجراحِ) ولاية دمشق فى خلافةِ صهره (عمر بنِ الخطابِ) بعد أن أبلى بلاءً حسنا فى معركةِ اليرموك .. رفض هذا العرض وآثر أن يظل جنديا إلى أن يرزقه الله بالشهادةِ .. فكتب إلى قائده (ابن الجراح) يقول :

"سلام" عليك .

فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو ..

أما بعد ..

فإنى ما كنت لأوثرك وأصحابَك الجهاد على نفسى وعلى ما يدنينى من مرضاةِ ربى ..

فإذا أتاك كتابى هذا فابعث إلى من هو راغب إليه منه ، فإنى قادم "عليك وشيكا إن شاء الله تعالى" ..

هكذا كان (سعيدُ بنُ زيدٍ) زاهدا فى كل منصب راغبا فى كل راحةٍ .. لم يطمعْ فى شىءٍ من الدنيا وهو صهرُ أميرِ المؤمنين وابنُ عمه ..

لقد شارك فى فتوحاتٍ كثيرةٍ وغنمَ مغانمَ "عديدة" لكنه لم يركن إلى الراحةِ ، ولم يبخلْ بما معه على الفقراءِ والمساكين ..

وظل (سعيدُ بنُ زيد) جنديا محاربا حتى تجاوز السبعين من عمره .. وقتها آثر أن يمضى ما تبقى له من العمر قريبا

مـن رسـول الله .. يصلـى حيـث كـان يصلـى .. ويسـتعيد ذكريات النور الذى كان يحيط مجلسَ النبوةِ ..

وظل مثالا للنبل والتقوى والزهدِ والشجاعةِ إلى أن لقى ربَّه بوجهٍ كريمٍ ، ودُفن بالقرب من المدينةِ المنورةِ فى العـامِ الخمسين للهجرةِ ..